شروط النهضة والبناء الجديد في فكر مالك بن نبي

عمر مسقاوي
قانوني ومفكّر لبناني

المقاصد
دورية ثقافية

تأثير المفاهيم الأوروبية:

أطلت أوروبا مع مسار القرن التاسع عشر وفلسفته بمفهومين أساسيين هما: مفهوم الثقافة ومفهوم الحضارة. فمنذ عام ١٧١٨م بدأت فرنسا تدخل كلمة Culture خارج معناها اللغوي كتوصيف مضاف إلى شيء آخر كالأدب والفن وليس كمضمون مستقل.

ثم استعمل مفرد، Conception، كمفهوم ليدل على التأهيل والتربية والتأديب مترافقًا مع نشوء مصطلح آخر هو Renaissance الذي ظهر مع بداية القرن التاسع عشر كمصطلح عم أوروبا وجاء تعبيرًا عن حركة تجديد واسعة شملت الفنون والعلوم وإحياء تراث الإغريق والرومان، كما تجلى في القرنين الخامس عشر والسادس عشر بغية إعادة إحياء واقع تاريخي محدد المعالم والصفات، كامل الوجود والمقومات، ينسحب من عمق التراث اليوناني والروماني.

عبّرت هذه المفاهيم عن المنحى الذي نحت نحوه التطورات التي اجتاحت أوروبا إذ بدا مفهوم الثقافة أكثر تخصصًا وتجريدًا في بناء العلوم الاجتماعية والنفسية بحسب ما عبّر عنه Taylor البريطاني، وتضمن مصطلح Renaissance في معناه ما يشير إلى التطور والتجديد الذي عمل عليه عصر الأنوار.

البدايات:

هذه المفاهيم التي حددت الحداثة توقّف عندها مالك بن نبي في كتاباته التي خصّها بدراسة واقع الجزائر في عام ١٩٢٥م. وبدا جليًّا تصديه للمشكلة الاستعمارية وعلاقتها بنشوء حركة الإصلاح بقيادة ابن باديس، ودوره في «مدرسة قسنطينة» التي أنشئت في عام ١٩٠٩م لتخريج الطلاب والعدول والقضاة لخدمة الأحوال الشخصية من خلال تطبيق الشريعة الإسلامية.

كان بن نبي منذ عام ١٩٢٠م قد انتقل من تبسة إلى قسنطينة ليتابع تحصيله العلمي في المدرسة بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، وبداية ما سمي بـ«العصر الجميل» في أوروبا طالبًا لمدة أربع سنوات تحت إدارة المدير الفرنسي Louis Alfred Durnon الذي شغل مركزه في هذه المدرسة من عام ١٩١٩ إلى عام ١٩٣٥م وقد كان هذا المدير منفتحًا، فأتاح للطالب بن نبي أن يطلع من خلاله على مجمل ما تتناوله الصحافة في ذلك الزمن، والأفكار التي تنشرها جريدة L'Humanité اليسارية، ومن هنا بدأ يتحدث مالك بن نبي عمّا أسماه القابلية للاستعمار.

هذا الإطار هو الذي أحاط بنشأة فكر بن نبي الذي كان يعيش في أجواء قسنطينة المفعمة بأخبار مصر ودول الشرق كافة، وما تعلق بها من أنباء الاستعمار البريطاني، وبالحركة التجديدية التي أسسها رشيد رضا وارث الإصلاح الأفغاني، هذا من ناحية، أما من ناحية أخرى فقد اهتم بن نبي بما كان يرد من أخبار تشرح وضع أوروبا في العشرينات كاهتمامه تمامًا بالدور الأمريكي في تطوير الرأسمالية وأيضًا بما نتج من مواقف طالت الفكر الاشتراكي، إضافة إلى ملاحظة سائر التطورات القادمة المتعلقة بالهند التي تضمنها شعر طاغور المناهض أنواع الاستعمار كافة. تلك هي صورة التحولات التي ارتبطت بفاعلية حضور أوروبا في العالم التي جعلت من مفهوم الثقافة صورةً وتعبيرًا عن تلك الولادة الجديدة التي تحققت فعلًا، واتخذت مصطلح Renaissance تسمية لها، فارتبط مفهوم الثقافة وبعث أوروبا من جديد كنموذج في ذهن الأنتلجنسيا العربية والإسلامية، وغدا النموذج الأوروبي هو

المعيار في التحدي المزدوج نحو الانفتاح الكلي خارج حدود التراث العربي والإسلامي كحقيقة اجتماعية قائمة، أو الانكفاء الكلي نحو الذاكرة التاريخية لنموذج الحضارة الإسلامية.

شروط النهضة في ولادة جديدة لتراث الحضارة الإسلامية:

شكّل كتاب شروط النهضة الذي صدر عام ١٩٤٩م خلاصة انعكاس لكل المظاهر التي اتسم بها العالم في تلك المرحلة. وما عنوان الكتاب «شروط النهضة الجزائرية» إلا ملخص للمنطلقات الرئيسية المتعلقة بسلسلة كتبه والمعنونة «بمشكلات الحضارة».

انطلق بن نبي من معيار عملي يختلف أساسًا عن كل مقاربات المفكرين والكتّاب الذين بحثوا في النهضة ومن زوايا مختلفة.

فنسبة شروط النهضة إلى «الجزائر» برأيه ليست عملية تركيبية تضيف مظاهر العصر الحديث إلى مظاهر الحياة الجزائرية في ظل الاستعمار؛ بل هي عنوان تحليلي يتمثل بمضمونه كل فصول الكتاب.

احتل البحث في وضع الجزائر المساحة الأكبر لتحليل أفضى إلى درس مفهوم ما تم ذكره سابقًا؛ أعني به «القابلية للاستعمار»، كواقع نفسي يحدد مرحلة معينة، بفعل المعنى «المضمر» الذي رسخته الحضارة الإسلامية في عمق الجزائر، وهي مرحلة الأفول والانسحاب من المسار التاريخي للحضارات.

فالقابلية للاستعمار عند بن نبي تشكّل قضية تتعلق بواقع الأفكار وأثرها ودورها في مرحلة اتسمت بالشلل الفكري الذي عاشه الجزائريون. الذي اتخذ نموذجًا لواقع العالم الإسلامي بمجمله.

من هنا بدت الشروط التي وضعها بن نبي تعتمد في بنيتها على استراتيجية أساسية، مماثلة لاستراتيجية ولادة أوروبا في إطار مفهوم Renaissance الأوروبي؛ أي: إعادة النظر في التراث القديم بعد تنقيته من سائر مؤثرات الحضارة الإسلامية التي أفلت بعد سقوط الأندلس.

هكذا انتهج بن نبي آلية المسار نفسه دون الدخول في تفاصيله، بالنظر إلى أنه تحدث عن الشروط السابقة المهيئة لولادة جديدة فيما خص المصطلح الأوروبي الذي تحدث عن الوليد الجديد في عصر النهضة، وهكذا انطلق كتاب شروط النهضة الجزائرية من مفهوم القابلية للاستعمار وهو واقع الجزائر القائم في حينه.

مفهوم الولادة من جديد Renaissance:

رأى بن نبي أن التصدي للاستعمار يتطلب تأهيلًا جديدًا ينقي سلبيات الأفكار السائدة في لحظة تاريخية مليئة بالبواعث، كتلك اللحظة التي نشأت فيها ولادة الإسلام عبر الوحي في مكة.

فتعبير الولادة الجديد هو ترجمة لمفهوم Renaissance كما جاء في الأصل الفرنسي لكتاب شروط النهضة وهو الأكثر وفاء لمنطلقات بن نبي من مصطلح «النهضة» لأنه يقود الذهن إلى النموذج الغربي، وقد أشار إلى هذا الجانب مؤخرًا المفكر المغربي محمد عابد الجابري، حين قال إنّ مصطلح Renaissance يدل على ولادة فعلية لواقع حضاري جديد هو «الغرب» بكل معناه، وقد أضحى حقيقة نهائية في مفهوم الحداثة والاستعمار على حدٍّ سواء، بينما عنى مفهوم النهضة عند العرب وفي المشروع العربي الإسلامي خروجًا من الواقع القائم، ويدل ذلك على أن وعي العرب في رؤيته لنهضة أوروبا يقوم أساسًا على الإحساس بالفارق بين واقع التخلف وواقع نهضة أوروبا، ولذا فإن العرب ينشدون النهضة التي يرون نماذجها بعيدًا عن بناء نهضة بديلة مختلفة عن الواقع المعيش.

رأى بن نبي أن العالم الإسلامي كان في مرحلة طفولية حدودها العلم بالأشياء المحسوسة فقط فأثر ذلك سلبًا على تبيّن الأفكار التي شكلت جزءًا من مجتمع عالم عالي التقنية supertechnique يبيعه الأشياء ويفرض عليه في الوقت نفسه مقاييسه، وقد رد المجتمع الإسلامي على مفعول هذه الرابطة باعتبارها إلزامًا في الحقل الاقتصادي، وفوق الإلزام في الحقل الفكري.

هذه الفوضى النفسية والفكرية طبعت حياة المسلم وبيئته غير المتناسقة جعلت مصيره كمسلم مشكلة حقيقية تكونت من جراء تضافر بعض العوامل التي أثرت في تطوره. وهذا أسهم في تكوين الفاصل النفسي الذي جاء ترجمةً لأزمة نمو شكّلت تحديًا في وجه العالم الإسلامي منذ أن استيقظ وعيه، وهي اعتبارات تكوّن في جملتها مظهرًا مرضيًّا يجب عليه التحرر منه.

العامل الثقافي ودوره في تفاعل متبادل بين الفرد والمجتمع:

أظهر بن نبي في كتابه «شروط النهضة» ١٩٤٩م صورة الاستعمار في الجزائر كمعطّل لكل ارتباط بين دور الإنسان الجزائري والبيئة، لذا اعتبر أنه لا بد أن تنطلق الولادة من جديد خارج الدائرة التي رسمها الاستعمار، أي: خارج مفهوم القابلية للاستعمار، وهكذا وضع المؤلف المشكلة في إطارها المتعلق بمستقبل الإنسانية على هذا الكوكب.

فمن العودة إلى بدايات الحضارة الإسلامية والعهد الأول نرى أن الاطراد التاريخي لفاعلية الفكرة الإسلامية انطلق من عاملين: الفكرة الإسلامية التي هي أصل الاطراد ثم الفرد المسلم الذي بإمكانه تجسيد المعنى المحسوس لهذه الفكرة.

فنشوء الدورة الحضارية يرتبط صعودًا وهبوطًا بالفرد الذي يمثل فكرة الإسلام باعتبارها سنده المحسوس، ففكرة الإسلام كوحي منزل تمثل الأصالة العينية والحقيقة المطلقة، فمصدر الوحي الله ليس إلا والباقي لا يخرج عن كونه صناعة الناس كما جاء في الخطاب القرآني، بمعنى أن محور الحضارة هو الإنسان المسلم الذي يعد سندًا لفكرة المحسوس في مسيرة التاريخ. وبقدر ما يمتلك من مسوغات الفكرة قد يتمكن من بناء الإرادة في فاعلية حضورها، وفي كيفية كتابة التاريخ في مراحل صعوده وهبوطه كافة. وهذا ما يعرف بتداول الأيام.

إن تطور الحضارة الإسلامية صعودًا وهبوطًا يرتبط في الأساس بالعلاقة العضوية التي تربط الفكرة بسندها. ومن هنا يبدأ دور الإنسان في بناء عالم

محيط حوله تتحدد في إطاره قيم الأخلاق ومدى ارتباطها بالمُثُلَ والجمال، ومدى التعبير عنهما. وكذا ما يتعلق بالفاعلية ومدى ارتباطها بالمنطق العملي في تفعيل الوسائل ذات الارتباط الوثيق بالقيم الأخلاقية والجمالية عبر العمل التقني.

إن العناصر الأربعة القائمة على: المبدأ الأخلاقي، المبدأ الجمالي، المنطق العملي، والتقني تكوّن ثقافة المجتمع حينما تصبح تاريخًا بفضل ما تتضمنه من أساس تربوي يحدد معيار الصعود والهبوط.

وعندما تتصل الحضارة بالثروة والثقافة تبدأ ببذر بذور التقدم الصناعي عبر التاريخ.

هذا المنهج المرتبط بمفهوم كوني كسُنَّة من سنن الله الأزلية يفترض أو يتطلب التأسّي بأوروبا والإفادة مما يقدمه الغرب عن طريق ما أسماه بن نبي معالجة القابلية للاستعمار والتفاعل مع مظاهر الحياة الغربية والذي يشكل الوجه الآخر لصورة الاستعمار، وقد يتيح هذا السلوك في الوقت نفسه للفرد العربي والمجتمع الإسلاميين الفصل بين ما يتماشى مع ظروفه وقناعاته وخصوصية واقعه والتقليد الأعمى للحضارة.

الحضارة الغربية أضرت بحركة التاريخ والنظام الكوني البيئي بعد انهيار الحضارة الإسلامية:

ذلك أن الواقع الاستعماري قد أضر بالمسلمين، كما أضر بالإنسانية جميعًا حين تخلف الضمير عن العلم وعن حركة الفكر، فمأساة العصر تتلخص بأن الضمير في المخزون المسيحي الروحي لم يستطع تمثيل ما حققه العلم من مخترعات، فبقي عاجزًا عن مواجهة الفجوة التي باعدت بينه وبين النزعة العقلية الناتجة عن التطور العلمي. فالذات الأوروبية التي قامت بدور تلميذ الساحر هي التي أبدعت الآلات دون أن تتمكن من السيطرة عليها فتحولت الحياة أرقامًا وصار العالم عصر «كَمٍّ» يخضع فيه الضمير للنزعة الكمية الحسّية ذات المنفعة المادية (وجهة العالم الإسلامي).

فمالك بن نبي في كتابه وجهة العالم الإسلامي ربط بين الضمير والإنتاج، تطبيقًا للمعادلة الأساسية المستخلصة من المبدأ القرآني: تغيير النفس باتجاه الإيمان بالله، والاستقامة في الأداءين الاجتماعي والاقتصادي بقصد إزالة الفجوة بين الضمير والعلم، وكذلك من أجل استقامة الحياة. وقد لحظ الكاتب السويسري Boizard في كتابه «الإنسانية في الإسلام» l'humanisme de l'Islam هذه الحقيقة حينما شرح المفهوم الإسلامي لمعنى الوحدة الاجتماعية في الفصل المعنون بـ«المدينة الإسلامية» بأنها تمثل شبكة العلاقات التي يتطور في داخلها الضمير في اتساقه مع الإنتاج الاجتماعي المنطلق أساسًا من مفهوم الوحي وقانونه الإلٰهي بعيدًا عن الاختيار الفردي الذي تنامى في الإطار الأوروبي إلى درجة أخرج الإنسان عن مداره الكوني.

فالإنسان يمثل في المصدر القرآني وحدة متكاملة غيبية في تفاصيلها ومتمايزة في تنوعها لكنها متداخلة وبسيطة في النهاية.

فالله هو المُطْلق وهو كلي القدرة والإرادة، من هنا فإن القدرة المطلقة تجعل كل شيء نسبيًّا وإذ يتدخل الغيب الإلٰهي في النهاية في تحديد قدر الإنسان يجعل عالم الأخلاق مرهونًا بالحساب الإلٰهي وخاضعًا له، مسجلًا نهاية الحياة كأساس ومعيار سلوكي لا وجود لهما خارج طاعة الإرادة والقانون الإلٰهي.

يبدو من خلال هذا المفهوم أن للإنسان امتيازًا خاصًّا يميزه من سائر المخلوقات ويتمثل في الاستجابة لله كلي القدرة والرحمة الإلٰهية. فالإنسان في قدراته الطبيعية يشكل طاقة كامنة يقوم عليها نظام الكون الأصغر Micro وكذلك نظام الكون الأكبر Macro، كما يقول المؤلف، ولذلك استحق الإنسان أن يكون خليفة الله على الأرض.

ومن خلال هذا المفهوم أعطى الإسلام الإنسان القيمة المطلقة في التكريم.

هذا التحديد لقيمة الإنسان يقول Boizard يختلف جذريًّا عن قيمته في الثقافة الغربية التقليدية باعتبار أن الحقوق والواجبات في ثقافة الغرب تعتمد

على معايير مختلفة آمرة أو شخصية تقليدية أو ظرفية تتغير مع تطور المجتمع وظروفه الخارجية، في حين أن المبادئ القرآنية للعدالة والشرف والتضامن الإنساني كلها جميعًا تتقاطع مع واجبات الإنسان تجاه القانون الإلٰهي الذي نزل به الوحي والقائم على أن واجب كل فرد مسلم الالتزام والعمل بالموجبات الدينية من باب الالتزام الذاتي (راجع: الحديث الشريف الذي هو أساس هذا التحليل «**اتَّقِ اللهَ حيثُما كنتَ، وأتبعِ السَّيِّئةَ الحسَنةَ تَمْحُهَا، وخالِقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حَسنٍ**» هذه وصايا ذات مفهوم كوني. وتبعًا لذلك يتولد مناخ «المدينة الإسلامية» في نوع من عفوية اجتماعية لها قاعدتها ومعناها الديني، ويأخذ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الطابع الأبوي المتواصل في توازن يؤسس لشبكة العلاقات الاجتماعية.

هذا التحليل الذي ورد في كتاب النزعة الإنسانية في الإسلام تفتقده الإنسانية في ظل العصر الحديث القائم على الفردية، كما تفتقدها قوانين حقوق الإنسان التي وضعتها منظمة الأمم المتحدة في أعقاب الحرب العالمية الأولى والثانية، باعتبارها حقوقًا سياسية يجب التمسك بها في مواجهة السلطة والحكم، ليكون النظام الدولي الذي بناه العصر الصناعي هو المرجعية النهائية لثنائية الشمال والجنوب في الحفاظ على هذه الثنائية التي قادت إلى العولمة.

هذا المفهوم لمعنى كونية الإنسان في إطار النظام الإلٰهي هو الذي بقي في عمق البنية الأساسية للمعنى المضمر الذي قامت عليه الحضارة الإسلامية، وقد رآه بن نبي في روحانية وأصالة الجزائري المسلم، وفي الحياة الأسرية والاجتماعية في العشرينات من القرن كما ذكر في كتابه مذكرات شاهد للقرن، كما بيَّن ذلك من خلال تأكيده أن الإسلام قيمة كونية ذات دور أساسي وهام جدًّا في تحقيق خلاص العالم، وهذا برأيه تجسد في «مكة»، وقد ضمن هذا في أنشودته الرمزية التي وردت في مقدمة كتابه «شروط النهضة».

تنقية العالم من العولمة وأزمة الحضارة:

بات الغرب يرى نفسه وثقافته وحضارته وأسلوب حياته المرجعية

الوحيدة والنموذج الفريد الذي ينبغي للعالم أن يؤوب إليه قبل فوات الأوان. إذ بات العرب والغرب مقتنعين بأن العولمة واقع حقيقي تمثل ثمرة تطور تاريخي وتقني لا يمكن الرجوع عنه.

هذه النتيجة التي تبدو اليوم أحد العوامل الأساسية للتفوق الأمريكي في سياسة العالم لم يدرك بن نبي مآلاتها قبل وفاته، بل تنبأ بها في منتصف هذا القرن، وهو من خلال تأسيسه للأصول الأولى في دورة الحضارة وشروط إقلاعها وفي إمكانية التجريد المستمد من النظام الكوني قد تمكن من أن يتبين نهاية لتاريخ الحضارة المهيمنة على مصير الإنسانية قبل فوكوياما.

لقد بدا العالم أسير العصر الحديث في مختلف صوره، وقد بدأ منذ نهاية الحرب العالمية الثانية يتقلب في فوضى الكم والوزن والتكاثر الذي يسبق مسيرة الزمن وخَلق الحياة على الأرض، فالعصر الصناعي أضحى في حرب ضد البيئة الكونية والإنسان، وهذا ما تعبر عنه موجات القلق والاضطرابات المستمرة.

فالظاهرة الدينية، كما أشرنا في تحديد عالمية الإنسان، تبدأ كما يقول بن نبي حينما يوجه الإنسان بصره نحو السماء، ليتمكن من امتلاك الأفكار التي يريد تبليغها إلى الناس.

من هنا تظهر أوروبا كأنها خارج الظاهرة الكونية والدينية، مع استحواذها على العالم الذي تمكن من سلب الزمن والإنسان قيمتهما المطلقة ليصبحا في خدمة الآلة والإنتاج والتكاثر، وكلها أسهمت في تدمير النظام الكوني. (وجهة العالم الإسلامي ـ مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ـ الفكرة الإفريقية الآسيوية).

ويعتقد بن نبي في هذا الإطار أن المغالاة في التفريط والإفراط تؤكد اليوم حقيقة قائمة وهي أننا نعيش ثقافتين في لحظة واحدة.

فالفكر الأوروبي يجهل (كما أوضحنا في مفهوم العولمة ونهاية التاريخ لفوكوياما) قانون التداول بين الأوج والحضيض في مسيرة الحضارات، لذا فالفكر الأوروبي يجنح دائمًا إلى الاستمرارية التي نشأت مع آلية ديكارت،

ومن ثَمَّ إلى الدوران حول مفهوم الوزن والكم، لكنه اليوم يسير إلى مصيره في الانحراف نحو المغالاة، لأنه انتهى إلى المادية في شكليها: البرجوازي الاستهلاكي والجدلي الماركسي الأمر فتسبب بأثر سلبي جدًّا في الفكر الإسلامي الذي فقد فاعليته ودوره الحضاري ودفع المسلمين إلى الانكفاء والتلطي خلف التصوف المبهم والغامض وانعدام التوازن والتقليد الأعمى والافتتان بكل ما جاء به الغرب، فشغفوا بتكديس السلع خاصةً عالم السلاح الذي لم يساعد العرب أبدًا في حل مشاكلهم الاستعمارية.

الخروج من المأزق يتجلى في ولادة جديدة للحضارة في مفهومها العالمي: الإسلام كنموذج:

أوضحنا فيما سبق أن الحضارة الإسلامية لعبت في مسيرتها دور الحضارة المركزية التاريخية في التداول الذي أشرنا إليه، ولقد توصلت بفضل تجاربها ومصادرها إلى نتائج استدعت الدراسات الاستشراقية التي حملت في تضاعيفها استراتيجية استقطابها لمعايير رؤيتنا وتقييمنا لتجربة الحضارة الإسلامية كماضٍ لا رجعة إليه.

لكن الحضارة الإسلامية كانت (عالمية تضامن العوالم الثقافية)، إذا صح التعبير فقد شكّل تضامنها المتواصل مع العوامل الثقافية تعارفًا (يبدأ من أوصاف الرحالة المسلمين للشعوب التي تعرفت إليها) فيما انتهت الحضارة الغربية في نتيجتها الأمريكية إلى إلغاء الزمن والإنسان والثقافات المختلفة في العالم، كما أشار الكاتب المعروف الدكتور عبد الوهاب المسيري في كتابه «الفلسفة المادية»، ويبقى في النهاية «عالم التراب» وفق عناصر بن نبي الثلاثة لبناء الحضارة، وهي: الإنسان + الزمن + التراب، فعالمية الإنسان التي تتمحور حول الرسالة كمفهوم غيبي افتقدت حضورها المعاصر أمام آلة العصر الحديث.

فالأنا الأوروبية تنظر إلى ذاتها على أنها الوحيدة في هذا العالم. ويقول بن نبي في مقال نشر عام ١٩٥٠م إنّ فلسفة الإنسان في الغرب تبقى رهينة تعابير ومصطلحات لا تعترف بوحدة الإنسان وتضامن ملحمته على وجه

الأرض، الأمر فيعيق حتمًا وحدة النوع البشري بجزءيها السلطة والسيادة. وهو يرى الحل متمثلًا في قيام نظام كوني ينجح في الخروج من هذه الثنائية.

أ ـ الخروج من التبعية إلى المعنى التاريخي المضمر لمكونات الثقافة:

كان من نتائج هذه التبعية أن افتقدت الدراسات العربية والإسلامية الوعي السياسي والاجتماعي والحضاري، كما افتقدت الرؤية اللازمة لاختيار استراتيجية ما تحقق لها الإفادة من التطور العلمي الغربي من خلال مزاوجته مع تراث المسلمين، فسارت على غير هدى وعانت كثيرًا من مركب سيكولوجية الاستعمار المنغرس في اللاوعي تجاه سلطة متفوقة، استتبع طاعةً وخضوعًا للعلوم، الطاعة للثقافة القادمة من أوروبا اعتبرت مسلّمة لا تثير تساؤلًا.

من هنا فالولادة الجديدة Renaissance لا بد أن تنطلق من المعنى المضمر التاريخي الذي يشير إلى حنين الولادة الجديدة وإلا فإن المجتمع العربي والإسلامي سوف يفقد حضوره وينتهي تحت ضغط العولمة الأميركية المشرفة على الانهيار هي أيضًا، ليقوم في أعقابها عالم جديد.

ففي ١٤/ ١/ ٢٠٠٣م نشر ملحق صحيفة Le Monde محاورة مع العالم الاقتصادي الفرنسي Alain Gaulle انطلقت من النتيجة الآتية: «مع تفاعل العولمة نمت الرأسمالية وأخذت دورها حين ضعفت معاداة الرأسمالية مع سقوط الاشتراكية الحقيقية وذلك بتخليها عن النظرة الماركسية... لكن الأحداث لم تنتظر ليقوم المنظرون بتأسيس هذه الأيديولوجية في بداية التسعينات حتى تصاعدت وتيرة الحرب والانهيار الاقتصادي وتصاعدت البطالة ما جعلها لا تفي بوعودها.

هنا سُئل العالم الاقتصادي:

وفي غياب نظرية موازية، كيف يمكن رفض منهج ثبتت قدرته على اجتياز الأزمات؟

فكان الجواب: إن منطق الرأسمالية يرتكز على ديناميكية اختزان المال

والثروة من دون نهاية، وذلك يتطلب من المرء السعي إلى المزيد من القدرة على الحياة والعمل ويغري بالمزيد، وقد يستتبع ذلك جهودًا أخرى تبين الخطأ الناجم عن ذلك التصاعد وهذا يجعلنا من جديد ألد أعداء الرأسمالية.

وهنا أتساءل ابتداء من أي نقطة يجب أن نوقف ذلك التكاثر المطلوب الذي يقوم على السيطرة والاستغلال لا على التسامح والتشاركية.

هذا السؤال لا يزال مطروحًا «قال العالم الاقتصادي في تصريحه للجريدة».

من هنا، فإن الجواب يتطلب العودة إلى السنن الكونية في تكوين الإنسان الذي هو الأساس لكل نهضة في مسيرة التاريخ، ويتطلب أيضًا تنقية رؤيتنا للعالم من الأفكار القاتلة التي استوردناها من الغرب؛ وقد أشار بن نبي إلى أهمية تنقية الأفكار التي تشكل خطرًا على الحضارة، وعلى الفكر العربي والإسلامي النهضوي الذي بدأ يشيع في نهاية القرن التاسع عشر، وهو إذ يستشهد بنظرية الانتخاب الطبيعي التطوري لـ«دارون» التي تفيد بأن «البقاء للأصلح» فإنه يجزم بأن ما يصدق في علم الحيوان لا يصح تصديقه في علم الاجتماع الإنساني حيث يعني الأصلح هنا غالبًا من هو أكثر شرًّا.

هذا المبدأ مع «جوبينو» و«روزنبرغ» كان سببًا في التنافس والتسابق اللذين ساعدا على النمو المادي في العالم الغربي، بحيث أصبح الأصلح هو الرجل الشرير (الذي لا يتورع عن استخدام أي وسيلة لتسجيل انتصاره على بعض المغفلين الذي يقيمون وزنًا للاعتبارات الخلقية!).

وقد نشر المفكر البريطاني «هوبسون» عام ١٩٠٢م كتابًا حول الإمبريالية، وقد نقل هذا الكتاب إلى العربية في مصر من ضمن ما سمي «سلسلة ألف كتاب» وأشار إليه «لينين» في مؤلفه «الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية» فـ«هوبسون» «حدد مفهوم الإمبريالية في ثنائية الاستعمار والقابلية للاستعمار كما جاء في تحديد بن نبي باعتبار أن المشكلة السيكولوجية لرسالة الإمبريالية ليست بالتأكيد قضية إثارة متعمدة واعية لدوافع كاذبة، بل هي خداع أفكار.

فالإمبريالية تطفو على بحر من العبارات الغامضة غير المحددة والتي

يبدو رنينها طيبًا، فأكبر الحقائق الإمبريالية وأهمها سياسيًّا واقتصاديًّا وأخلاقيًّا غير معروفة. فالحرية الفردية حرية الأجناس والمساواة في العدالة التي تسود في كل مكان، والمسيحية والمثل العليا الأخلاقية البريطانية تنتشر بسرعة بين شعوب واسعة من الأجناس الدنيا التي تدرك بسرور تفوق أفكارنا التي تجنيها من الحكم البريطاني وسبب ذلك يعود إلى:

أولًا: إلى التفوق الأوروبي، أي: إلى شعور الغربي بالثقة نتيجة تفوقه، مقارنة بما يستشعره العربي من ضعف وانهزام.

ثانيًا: إلى أن الرضا عن النفس لدى الأوروبي قد بلغ أوجه، فالوعي بالذات الذي بلغته أمم غرب أوروبا أسهم في استثارة الغريزة بواسطة التفكير الواعي».

ـ انتهى كلام هوبسون ـ.

ب ـ إجراء رقابة فاعلة على القيمة الذاتية للأفكار:

على ضوء ضعف الرضا عن النفس في ذهنية القابلية للاستعمار نشير إلى كتاب بن نبي «الصراع الفكري في البلاد المستعمرة» ص٧٦، حيث حدد بدقة هذا الجانب المرضي في بيئة المجتمع الإسلامي، فالأفكار في هذا المجتمع لا تتمتع بحيز مهم من تربيتنا.

بالنظر إلى أن منطلقاتها لا تتعدى الدوائر الثلاث: وهي الدائرة الشخصية ـ الدائرة الاجتماعية المحيطة به ـ الإشعاع الذي يأتي من خارجهما.

فالجهاز الفكري الذي يتركب في النهاية من الوجهة النظرية من الدوائر الثلاث التي تمت الإشارة إليها تبدو متداخلة من ناحية التأثير وكأنما هي مركبة من دائرتين فقط: الدائرة الشخصية والدائرة الاجتماعية، فيما تغيب دائرة الإشعاع عن أية رقابة وتنقية بفعل التبعية النفسية للحضارة الغربية الأوروبية.

ويردّ بن نبي ذلك إلى أن المحاولات النهضوية التي جرت في العالم الإسلامي بدت متفاوتة ومتعارضة لأنها لم تستند إلى نظرية محددة علمية أو تجريبية واضحة.

فالمصلح الإسلامي الذي لم يهتم بتقديم برنامج إصلاحي، ترك هذه المهمة وأوكلها إلى عنصر الوقت باعتباره كفيلًا بحل الإشكالات.

هذه الجوانب السلبية في آلية الفكر الإسلامي والتي طبعت العصر الحديث لا بد من أن تستدعي التنقية: أولًا لتحديد موقع المشروع النهضوي في مواجهة الأزمة الراهنة التي اتخذها بن نبي عنوانًا لأحد كتبه، ونعني به «مشكلات الحضارة»، واهتم من خلالها بإبراز وجهيها المتمثلين في:

١ ـ مشكلات الحضارة الأوروبية الغربية الراهنة في تعاظمها المادي التي تؤذن بشيخوخة مسارها المستقبلي وأثره في الإنسانية.

٢ ـ أن مشكلات الحضارة في عالمنا العربي والإسلامي التي تبددت فيها أي محاولة رؤيويه قد تخلفت عن الإسهام العملي في المشاركة في صنع مستقبل العالم.

ففي كتاب الفكرة الأفريقية الآسيوية رأى بن نبي أن دور الإسلام المستقبلي مرهون بمقدار تواصله مع الثقافات الأخرى وبمدى انتشاره التاريخي في آسيا وأفريقيا وبما ينتهجه من منحًى عالمي منفتح على مسار أوروبا والعصر الحديث بهدف تحقيق شمولية المفهوم الكوني للإنسان.

فالموازنة بين الثقافة الإسلامية والثقافة الهندية كان ممكنًا أن تكون واقعية في حال لم يتم تقسيم الهند لإقامة الستار الحديدي في مواجهة روسيا، وتعطيل كل انتشار للإسلام باتجاه الصين وفق خطة تشرشل عقب الحرب العالمية الثانية (الصراع الفكري في البلاد المستعمرة).

وهكذا ينطلق بن نبي في معالجة القضية العالمية من زاوية القابلية للاستعمار، وليس من زاوية الاستعمار الذي تستدعيه، وهو في هذا يخاطب على حد سواء أفريقيا وآسيا، كما يخاطب محور واشنطن، موسكو، المتلبس بمركزية الإنتاج، باعتبارهما وجهين لعملة واحدة.

ج ـ دور الأفكار الوظيفي والطاقة الروحية:

ولو حدث التزمنا برقابة ذاتية على دور الأفكار لنميز فيها الخبيث من

الطيب على حد التعبير القرآني فإن الطاقة الروحية هي التي تحدد مسارها الوظيفي وفق تحليل بن نبي في كتابة «مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي».

فالمجتمع الإنساني يبدأ من مسيرة الحضارة المدعومة بالأفكار وفي فترة اندماج مجتمع ما، في التاريخ، فإن للأفكار دورًا وظيفيًّا يرتبط بالطاقة الحيوية باعتبارها قوة فاعلة في محيط القيم الروحية التي تشكل عنصرًا إيجابيًا محفزًا لأن أي إلغاء لدورها يُسْهم في تعاظم السلبيات وتدمير المجتمعات.

يشكل التوازن وسيلة لتنشيط الطاقة الحيوية فيؤسس لحركة الواجب ولاستخدام ما يحويه خزان القيم الروحية المطلقة القادرة على مواجهة الحقوق التي تعد استهلاكًا لكل الإمكانيات على مستوى الأفراد.

ويختلف هذا المفهوم عن مفهوم الواجب في النزعة الفردية الأوروبية التي ترى أن الحقوق هي الأساس، والواجب يفترض تنازلًا عنه لحساب العقد الاجتماعي تسهيلًا لقيام الدولة.

ويمثل هذا التحديد الأوروبي الفرنسي الحلقة الأخيرة في مسار تثبيت وتعاظم دور الحضارة الغربية التي ارتكزت في القرن التاسع عشر على مركزية الدولة، غير أن الاندفاعة الأولى في مسار الدورة الحضارية عبر التاريخ يبقى دائمًا في تمثّل القيم المقدسة التي تنظم الطاقة الحيوية على صعيد الواجب وعلى صعيد العناصر التي تؤدي إلى نشوء الحضارة الغربية.

ويثبت التاريخ دائمًا أن عالمًا مبنيًّا في الأصل على القيم المقدسة يميل دائمًا إلى نزع هذه القداسة في منعطف آخر مختلف، وقد يقوده الاقتصاديون، ويمكن أن يشكل تقدمًا، مع أن الفلاسفة يسمونه إهدار طاقة في منعطف شيخوخة. وهذان التفسيران يتلاقيان في حتمية تحول الطاقة التي تحكم التاريخ كما تحكم الفيزياء.

هذه هي مسيرة التاريخ التي تصنع الحضارات، يتداولها كرقاص الساعة في دقاته المزدوجة صعودًا إلى القمة وهبوطًا إلى الحضيض. وفي المراحل الوسيطة بين القمتين تسجل فترات إخصاب متبادل، يكتنفها اختلاط في البابليات التاريخية كما هو عصر بابل القرن العشرين. (مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي).

هـ ـ بابلية القرن العشرين وتأثيرها في الفكر النهضوي في العالم العربي والإسلامي:

إن الفكر التحديثي المنطلق مع صيحة جمال الدين، ومن ثمَّ مع جهود عبده بدأ يأخذ سبيله للنقد التفصيلي، وللانفتاح على أوروبا، مستفيدًا من مناخ عام ١٩٢٥م، حيث بدأت كتابات المتأثرين بالفكر العربي تعمل على اجتراح مسلّمات نفسية جامعة في إطار الجدل والتشكيك، ضمن معيار الفكر الاشتراكي الذي يعمل لحساب مركزية أوروبا، وبصرف النظر عن صوابية أو عدم صوابية التحليل، فإن فقدان البوصلة في التعامل مع التطور الأوروبي سيبقي العربي معتمدًا على الماضي، ويبقى الحل قائمًا في طرح منهج جديد روّج له من خلال مشروعه الذي وضع خطوطه العريضة في سائر كتبه تحت عنوان مشكلات الحضارة في وجهيها: وجه الأزمة في أوروبا العصر الحديث، ووجه الأزمة في خيار العالم العربي والإسلامي، فاختلطت التطورات في تلك البابلية الراهنة، أي: في المرحلة الوسيطة بين انهيار منتظر للحضارة الغربية، وترقب حضارة جديدة.

فاجتهاد تلاميذ أوروبا من العرب والمسلمين لم يضف شيئًا إلى تراثهم، لكنه أربك الإطار على مدى قرن كامل دون خطوة واحدة إلى الأمام.

لذا يمكن الاستنتاج مما تقدم بأن على الفكر الإسلامي التوجه نحو الآفاق البعيدة، وهذا لم يحصل حتى الآن ولم توجد له ترجمة فعلية عملية في منهج تربوي استشرافي يساعد في بناء الأجيال.

فالمظاهر التي تعكسها أزمة العالم العربي والإسلامي تبيّن مدى العجز الكامل الذي أعاق المسلمين عن تحديد انطلاقة مشرفة، وقد أشار إلى ذلك بن نبي بطريقة غير مباشرة عندما حاول تعريف الطاقة الحيوية، وفي كلامه عن اختلاط المعايير.

فأحيانًا تتمثل الطاقة الحيوية المتحررة من الضوابط بمظاهر القيم الروحية، التي وصفها بكلمة المرابطية بوجهيها الديني أو السياسي، وعبر مفهوم الزعيم، وكلاهما تسيّرهما آلية الفكر الاستعماري.

ثم إن بن نبي لم يشهد عصر ما سمي بـ«القاعدة» (منظمة متشددة تدعي الإسلام) روجت لتحول جديد لمفهوم المرابطية، وجعلته بديلًا مصطنعًا مسرحيًّا للحرب الباردة، وهي صورة من صور المرابطية في فردية مركزية للطاقة الحيوية التي تبحث عن سبل الخروج من الأزمة، سواء الأزمة المتخيلة في عقول المريدين نتيجة احتقان نفسي، أم الأزمة التي عبرت عنها حال العالم الإسلامي والمتخيلة في طاقة حيوية بغير سقف، تهدم تداعيات رؤية عالمية جديدة لمفهوم ومقتضيات حضارة إسلامية بمواصفات مختلفة.

فالحضارة الغربية فرضت وسائلها في سوق الاستهلاك، وفي تأثره بغريزة الطاقة الحيوية كسوق لإنتاج غير محدود بسقف، وهي لذلك تستدرج العجز في مظهرين متناقضين؛ فمن ناحية نجد رغبة كبرى من العالم الإسلامي باقتناء وتكديس السلع الغربية في ظل غياب كلي لمعالجة القضايا المصيرية والوطنية والاستقلالية، من مثل محاربة إسرائيل ومقاومتها، وهذا حق مشروع تغاضى عنه العرب والمسلمون بفعل تسلط الغرب بخبثه ومفاهيمه.

وهكذا خلفت تداعيات العولمة الحيوية اتجاهين موازيين: إما أن تندفع في امتلاك الأشياء امتلاكًا غير محدد أو محدود وفي ظل مبادرات فردية، وإما أن تندفع في امتلاك السلاح في ظل مبادرات فردية أيضًا للدخول في حلبة الصراع في مواجهة قوة العالم المنظمة ذات الاستراتيجية المهيمنة على العالم الإسلامي وعلى ثروته الجغرافية والإعلامية التي تعمل لحساب العصر الإسرائيلي بكل مؤثراته، وذلك أسهم في تهميش مركزية القضية الأساسية فلسطين، والحضارة الإسلامية والعربية، وهكذا تبدو اليوم بابل العراق في كلتا الحالتين، كما تبدو الطاقة الحيوية في بابلية الفوضى العالمية.

و ـ نحو رؤية في بناء جديد (كتاب فكرة كمنولث إسلامي):

من خلال هذه البابلية التي أشار إليها بن نبي لم يعد الفكر الإسلامي يمثل أرضية نمطية اجتماعية ووطنية تعني المسلم وغير المسلم كما درج عليه واقع المجتمعات الإسلامية في مسيرة التاريخ. فالنظر إلى التراث من خلال

مقاربات تسلب ألباب المشاهدين في التلفزيون أو في الكتب الرائجة يوضح عجزها عن تقديم أي رؤية مستقبلية تحقق انتماء الأمة إلى الإسلام الحقيقي.

إن كتاب «فكرة كمنولث إسلامي» هو نتيجة تحليل عملي وواقعي لمشكلة النهضة في العالم الإسلامي، وضعه بن نبي لينقي أفكارنا من كل بابلية المرحلة الوسيطة التي تنحسر فيها الأفكار في رؤية الحاضر، حين تسيطر الوسائل وحدها في إطار كمّي تكديسًا يبدّد الجهود. وهكذا اقترح مرجعية تحليل وترشيد تفد إليها مشكلات من العوالم الإسلامية المختلفة التي تكوّن في كل منها كمًّا من المشكلات المختلفة والمتنوعة.

فتجديد الفكر الإسلامي لا بد أن يكون في إطار المجتمع، ومن خلال مشكلاته في مفهومه الوطني والاجتماعي، إنه تحريك الإنسان وبناء شخصيته من خلال قيمته الكونية المطلقة؛ ومن هنا فإن الإسلام يجسد مناخًا شموليًّا جامعًا عمليًّا وواقعيًّا يشترك فيه المسلم وغير المسلم في وحدة اتفق على تسميتها بالطاقة الاجتماعية تأسيًا بما فعله الرسول ﷺ يوم وصل إلى المدينة لتكوين تحالف يرعى حماية العهود بين المسلمين واليهود، إن يهود بني عوف أمة مع المسلمين، للمسلمين دينهم ولليهود دينهم، وقد شكل هذا في حينه أساسًا للدفاع عن المدينة.

شكلت الإرادة الحضارية المحور لأي رؤية جديدة، كما يقول بن نبي، بالنظر إلى أن الوحدة وتناغمها يشكلان معًا الطاقة الحيوية التي ترعى الواجب الأخلاقي، خاصة أن هناك فرقًا بين المحدثات التي تقتحم وحدة المجتمع وتفسد تناغم المسيرة في سوق العولمة واستهلاك الفردية المطلقة من جهة، والاستجابة الضرورية للمستجدات التي تتفاعل مع وسائل استمرار المجتمع بحسب قوانين الرسالة والثقافة الاجتماعية الخاصة من جهة أخرى.

وتعتبر المستجدات حدودًا لثقافة المجتمع، أي: إنها تقوم بقدر ما يتجلى فيها من حيوية الإرادة وقوة الإنتاج، كل ذلك في ظل حركة ثقافية ترتب الحاجات، كما حدد بن نبي في كتابه «المسلم في عالم الاقتصاد»، وبالتالي فإن المجتمع قادر على تلمّس حاجاته ورسم حدودها ومن ثم اجتراح الحلول لها.

أما المحدثات فتندرج تحت ما يسمى بالحدث الخارجي الذي يتدخل في أساس حركة المجتمع، فيربك تناغمه بسبب طغيان ما يطلق عليه اليوم مسمى السوق العالمي الخاضع لقوى الإنتاج والعامل لمصلحتها عن طريق تحقيق الوفرة المادية ليس إلا.

فأمام عولمة الوسائل والاتصالات التي حوّلت العالم إلى قرية صغيرة، كما قال بن نبي، إذ يبدو من المهم جدًّا ألا ننغمس في سطوتها، كمحدثات جاءت من العصر الرأسمالي العالي التقنية في ظل شغف استهلاكي استحواذي. فعلى العالم العربي تحديد خياراته تجاه المستجدات، ومن معيار تقييمي لحاجات ترتبط بصلب تطوره وفي إطار الحضور العالمي والإسهام فيه.

فتطور الفكر الإسلامي نابع من مقاربة الحدث وتأمله لا الاقتراب منه، فحينما يفقد المجتمع البواعث والحوافز يتوقف إنتاج حلول المشكلات التي يواجهها، وحينئذ تصبح حياة المسلم امتدادًا للعالم المسيطر، وسوقًا لإنتاجه ولحسابه، بالنظر إلى أن المشكلة تكمن في طريقة تعامل المسلم مع الأفكار الواردة، ومن هنا يمكن تسجيل بعض الفروقات بين مسار المسلم في زمننا وفي زمن الدعوة.

فالمسلم الذي حضر خطبة الوداع كان يحمل رسالة تعني الأجيال المسلمة القادمة، وتحديدًا ما ألمحت إليه الخطبة من نهج يجب أن يتبع على مر العصور.

فهل نجح الإنسان المسلم في حمل هذه الرسالة وتسليمها إلى الخلف؟ يتساءل بن نبي في ختام كتابه المعنون بـ «فكرة كمنولث إسلامي».